ماذا تعلم الغرب منا ٠٠ وماذا تعلمنا من الغرب ؟ (*)

الأستاذ محمـد خلف الله(**)

ان طريق التأثير الحضارى بين الشرق والغرب طريق طويل ، يبدأ من الماضى البعيد ، ثم يمتد عبر العصور مغربا حينا ومشرقا حينا آخر، ومن الصعب أن نقيم عليه حدودا تفصل بين مرحلة وأخرى ، أو تفرق بين مؤثر ومتأثر ، فقافلة الانسانية كانت ـ وستظل ـ دائمة التسيار ، قائمة على التواصل وتبادل المنافع ٠ وقد اقتضت سنة الله فى بنى البشر أن تزدهر حضاراتهم فى موجات زمانية متنقلة ، ترتفع هنا لتنخفض هناك ، وتحمل معها فى سيرها ـ غادية ورائحة ـ كل ما تصب فيها الروافد من آثار الفكر والتجارب ، وضروب السلوك والاجتماع ٠

الشرق أقدم تحضـرا :

ولكن الشىء الذى تشهد به عصور التاريخ المعروفة أن الشرق أقدم تحضرا من الغرب ، فقد اخترعت عبقريات الشرقيين ـ فى مصر وآشور والهند ـ وغيرها ـ مقـومات الترقى فى الحياة الانســانية ، كالكتابة والحساب ووسائل الزراعة والنقل ، وحاولت أن تنفــذ بتفكيرها الى قضايا الوجود والغاز الحياة والموت ، وقامت فى العالم الشرقى القديم حضارات وفلسفات ، شغل الغرب الحديث ـ ولا يزال ـ بالكشف عن آثارها الخالدة على مر الزمان ٠

ثم غرب مركز الاشعاع فى القرون الخمسة أو الستة السابقة لميلاد « المسيح » الى « أثينا » معلمة أوربا ، وواضــعة الأسس الكبرى فى فلسفتها ودراساتها ، وآدابها وفنونها ، فابتدأت بذلك موجة عالية من موجات التطور الانسانى ، حمل لواءها الغرب وعرف الشرق بعد كيف يفيد منها ، ويضيف اليها ٠

(*) عميد كلية الآداب بجامعة الاسكندرية الأسبق ٠

(**) مجلة الهلال ، يناير ١٩٥٦ ، صص ٥٨ ـ ٦٢ ٠

ومنذ ألفى سنة من الزمان أضاف الشرق الى سلسلة دياناته حلقة سماوية جديدة ، ما لبثت أن عبرت الى الغرب واستقرت فيه ، وطبعت أممه بطابعها الى اليوم ، وورثت - فيما ورثت - حضـــارات اليونان والرومان ، ولونت تلك الحضارات بألوان تعاليمها ومبادئها ٠

الشرق مصـدر النـــور :

ولم تمض على ذلك بضعة قرون حتى أضاف الشرق رسالته الالهية الأخيرة ، فانتشرت فى آفاق العالم الشرقى انتشار النور فى الظلام ، وجمعت تحت لوائها مختلف أممه وحضاراته ، ونسجت من كل أولئك نظاما انسانيا عاما يقوم على مبادىء التوحيد والاخـــاء ، والارتفاع بكرامة البشرية عن فوارق اللون والجنس والعقيد والثروة ٠ ثم أرسلت طلائعها الى أقصى حدود الغرب المعروفة اذا ذاك ، فاتخذت من شـبه جزيرة « الأندلس » وطنا غربيا لها بضعة قرون ، وأنشأت فى «صقلية» مركزا تشع منه على قلب القارة الأوربية ، ونشرت ما شـــاءت لهـــا عبقريات أهلها أن تنشر من أضواء الفكر والعـــــلم ، وفتحت أبواب معاهدها ومكتباتها لطلاب المعرفة من أرجاء أوربا ، وأحيت للغـــرب تراث الاغريق الفلسفى بعد أن تركت عليه طابعا من جهـــود مفكريها وعلمائها ٠ وبذلك أضاف الغرب الى قائمة معلميه أسماء « ابن سينا » ، و « ابن رشد » ، و « الرازى » ، و « جابر » و « الغزالى » و « ابن عربى » و «ابن‌الهيثم»و « ابن خلدون » وغيرهم ٠ ولم يأخذ الغـــرب عن الشرق دروس الفلسفة والطب والكيمياء والفلك والرياضة فحسب ، ولكنه تأثر بما نقل اليه من أدب الشرق فى قصصه وأشعاره ، ولياليه واسماره ، وأساطيره وخياله ، وفروسيته ومغامراته ، فسرت فى آدابه روح جديدة كان لها صداها فى عصر النهضة الأوربية ٠ وقد تكفل بانصاف الشرق فى هذه النواحى طائفة من الباحثين المحدثين فى أوربا وأمريكا، ممن درسوا تراث الفكر الشرقى فى مختلف مظاهره ، وسجلوا ما كان له من فضل وتأثير على الفكر الغربى ٠

فترة خمود وجمـود :

وتدور عجلة الزمان دورتها ، فتخمد جذوة الشرق قرونا ، يطرد

فيها تقدم الغرب ، وتزدهر علومه ومعارفه ، وتقوم فيه مدنية جديدة قوامها اخضاع ظواهر الكون والحياة للتجربة والبحث المنظم ، ويقوى سلطانه المادى ، ويستهويه ما فى الشرق من خيرات نام عنها أهلها ، فيبسط على أمم الشرق نفوذه ، ويتحكم فى مصائرها وحرياتها . وتستمر الحال على هذا الى أن يصحو الشرق من نومه فى القرن التاسع عشر ، ويدرك تأخره عن ركب الحياة ، فيولى وجهه شطر الغرب يتلقى على يديه مناهج البحث العلمى ، وأساليب الاصلاح الاجتماعى والسياسى ، ثم يحاول أن يستعيد مكانته من جديد ، فلا يلبث أن يصطدم بقبضة الغرب تحد من حركته وتعوقه عن السير ، فيستجمع لها قوته ويكافح فى تحرير نفسه ، مستمدا الالهام من ماضيه الزاهر ومجده الغابر ، مصمما أن يحيى سيرته كما كانت فى عصورها الذهبية ، وان يقوم بنصيبه فى ترقى الانسانية الحديثة وتقدمها ، كما قام بدوره فى تطور العالم القديم.

ماذا أفدنا من الغرب ؟

هذا هو الحساب التاريخى المجمل لتبادل التأثير بين الشرق والغرب . وهو حساب فصلته البحوث والكتب ، وافاض فيه العلماء والمؤرخون ، فاذا نحن ركزنا نظرتنا فى المرحلة المعاصرة ، وجدنا أننا – من غير شك – وقفنا من الغرب موقف المتعلم من معلمه ..فبعثنا طلابنا الى معاهده ، واستقدمنا علماءه وخبراءه الى بلادنا ، وترجمنا علومه وآدابه الى لغاتنا ، ونقلنا عنه شتى الأساليب فى الثقافة وفى التنظيم العمرانى ، واستعرنا أحدث أوضاعه وطرائقه فى الحكم ، واصطنعنا كثيرا من عاداته ونظمه فى المعيشة والاجتماع ، وأفدنا من الاقتداء به فى تنظيم حياتنا ، وتجديد فنوننا ، فاستكملنا ما كان ينقص تراثنا العربى من أدب القصص والمسرح ، وحررنا لغتنا من قيود الصناعة والزخرف ، وخرجنا بشعرنا من دائرة الاشخاص الى جمال الطبيعة وأسرار الكون ، واتجهنا بموسيقانا وسائر فنوننا نحو الآفاق العليا من تجارب الانسانية ومعانى الحياة ، وأصبحت لنا معاهد وجامعات ، ومصانع ومعامل ، ومؤسسات اقتصادية ، وأنظمة من الادارة والتشريع ، على غرار ما تعلمنا من الغرب فى مدنيته الحديثة .

وكان لاتصالنا بالغرب آثار فى بعض نواحينا الاجتماعية والاخلاقية

فقد حاولنا أن نقلد بعض أممه فى الحرص على النظام وتقويم الزمن ، والاحتفاظ بالتقاليد الصالحة ، والصبر على الغمرات حتى ينجلين ، وعدم الاستسلام لروح اليأس والهزيمة ، وتحاشى الاندفاع وراء الاهواء والانفعالات دون ترو أو تفكير ، وقد غيرنا ما أورثتنا عصور التأخر من موقف الجمود نحو المرأة ، فأتحنا لها الآن فرص الثقافة والعمل والاشتراك فى خدمة المجتمع ٠

ليس الغرب خيرا كلـه :

هذه دروس تعلمناها من الغرب الحديث ، أو قل : تعلمنا منه كيف نستعيد الكثير منها فى تراثنا الذى أهملناه ٠ ولكننا قد وصلنا فى تطورنا الى مرحلة أدركنا فيها أن دروس الغرب ليست خيرا كلها ، وأن فى حياته نواحى غير صالحة ، يشكو الغربيون أنفسهم ســـوء نتائجها ، ويودون لو عادوا فيها الى سبيل القصد ٠ وكثير منها يتصل بالعلاقة بين الرجل والمرأة ، وبفنون اللهو والمتعة والفراغ ٠ وقد بهرت أبصـــارنا ببريقها ، فأسرفنا على أنفسنا فى تقليدها ، ثم أفقنا فنظرنا فاذا هى منافية للصالح من آدابنا وتقاليدنا ومقومات كياننا الخلقى والاجتماعى٠ وعلمتنا تجاربنا أن مدنية الغرب تنقصها عناصر جوهرية ، احتفظت بها مدنيات الشرق ، وبنت عليها فلسفة صالحة فى الحياة ، وان من واجبنا نحو الانسانية أن نبشر بهذه العناصر ، وأن نعلمها أمم الغرب ٠ وقد بدأ الغرب نفسه يتنبه لهذه الظاهرة ، ويستعين بعلماء الشرق على دراستها ويسأل : ما الذى يستطيع أن يتعلمه من ثقافتنا وتعاليم ادبائنا؟ وأخذ بعض باحثيه يدرسون موقف الاسلام ــ وهو أكبر العوامل الموجهة فى حياة الشرق ــ من المعضلات الكبرى التى يواجهها المجتمع الحديث ، وتحشد الوفود لبحثها فى المنظمات الدولية ٠

الاسلام أستاذ الحرية والعدالة والمساواة :

وهنا يبرز الدرس الذى يجدر بالغرب أن يتعلمه اليوم من الشرق الاسلامى ، ذلك هو الفهم الأصيل لحقوق الانسان من حـــرية وعدالة ومساواة واخاء ٠٠ فان تاريخ محاولات الغرب الجدية فى تقرير هذه الحقوق تاريخ حديث ، لا يمتد الى أبعد من القرن الثامن عشر ، على

حين قرر الاسلام هذه الحقوق واضحة صريحة منذ القرن السابع الميلادى، وجعلها جزءا من عقيدته ، وركنا من أركان رسالته ، وطبق مبادئه فيها تطبيقا عمليا فى سياسة الأفراد والجماعات فى مختلف الأمم التى شاركت فى حضارته ٠

وليس من شك فى أن الغرب الحديث جاد فيما يدعو اليه من تقرير هذه الحقوق ، وفيما يعقد من المؤتمرات ويصدر من الوثائق ٠ ولكن دعوته تنقصها روح العقيدة والايمان التى تؤلف جزءا من كياننا الفكرى فى الشرق ، وتتعرض هذه الدعوة فى الغرب كل يوم للنقض والانتكاس من أثر الأطماع والمصالح السياسية ٠ ولن ينقذ الانسانية الحديثة الا مطابقة الأفعال للاقوال ٠

وحين يثقف الغرب هذا الدرس ، ويحسن فهمه والعمل به ، تستقيم الصلات بين الشرق والغرب ، فيجرى التأثير النافع من الجانبين ، ويفيد الغرب من معارف الشرق الحديث الناهض وفلسفاته ، وفنونه وآدابه ، وأخلاقه وتعاليمه ، كما أفاد الشرق فى المائة والخمسين سنة الأخيرة من ثقافة الغرب الحديث وطريقته العلمية وثمار عبقريته فى الفكر والاختراع ٠